الصراع العسكري الزياني المريني: أسبابه ونتائجه*

الدولة الزيانية واحدة من القوى السياسية التي قامت في بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من (633هـ/962هـ إلى 1554/1235م) وعلى الرغم من الدور العسكري الذي قامت به في تاريخ الجزائر خلال العهد الإسلامي، إلاّ أن أغلبية الدراسات والبحوث حول هذه الدولة تكاد تنحصر في الجانب السياسي والحضاري، باستثناء بعض المقالات والرسائل الجامعية وهي تستحق كلها التنويه، لكنها عالجت موضوع النظام العسكري في العهد الزياني بصورة عامة في سياق دراسة تاريخ الدولة الزيانية، وقد يكون ذلك راجع إلى قلة المصادر، أو أن معظم الروايات والشواهد التاريخية طواها الزمن، أو تم إتلافها في خضم الصراعات الدموية التي اندلعت بين هذه الدولة وجيرانها المرينيين والحفصيين، أو تعرضت للضياع نتيجة إنعدام خطة إدارية تسعى إلى حفظ الوثائق وصياغتها حيث انعكس ذلك كله على أعمال الباحثين، حيث زاغو أمام هذه الظروف الشحيحة بإقتحام دياجير هذا الموضوع، والإتيان بمعلومات هامة وافية حوله، و يمكن تشبيه حال الباحثين- في هذا المجال- كحال من يغطس في مياه ضحلة...

نطمح في هذه الدراسة إلى إعادة كتابة تاريخ المغرب الأوسط الوسيط انطلاقا من رؤية جديدة ومعايير موضوعية، تهدف إلى صياغته صياغة جديدة، وتطهيره من شوائب الكتابات التقليدية، واقتحام مواضيع ظلت مهملة إلى فترة قريبة مثل تاريخ المؤسسة العسكرية خلال العصر الزياني.

نشاط الجيش الزياني: تمثل المعارك التي خاضها الجيش الزياني ضد خصومه (المرينيين، الحفصيين) نشاطا ميدانيا تطبيقيا لمجال التأطير والتعبئة التي عكف الزيانيون على توفيرها لهذا الجهاز الحساس ماديا وبشريا، إذ تبرز قوته وفعاليته جليا بتعدد جبهات حركته وحيوية نشاطاته، وحسن توظيف القدرات الذاتية والخبرات القتالية للعناصر المكوّنة له، فتوجه سلاطين بني زيان لتثبيت دعائم دولتهم، وإرساء حدود ثابتة لها، دفعهم غالبا إلى تولي قيادة الجيش بأنفسهم تبعا لطبيعة المعارك المصيرية التي خاضوها، بدءا بالتحدي الأول الذي وضعه

*د. خالد بلعربي- قسم التاريخ- جامعة الجيلالي اليابس- سيدي بلعباس.

مؤسسها يغمراسن بن زيان على عاتقه لتحقيق طموحه السياسي في إنشاء دولة ذات كيان خاص والذي تمكن من تحصيله عقب الدور الإيجابي الذي قام به سنة 646هـ/1248م في كبح جماح المرنيين الذين هددوا ملكه من الجهة الغربية.

معركة وادي تلاغ 666هـ/1267م: وهي من النماذج البارزة التي خاضها السلطان يغمراسن بن زيان مؤسس دولة بني زيان، اعتبار للظروف المحيطة بها، وارتباطها المباشر بالأحداث التي عرفتها الدولة الزيانية عقب محاولة المرينيين التوغل في أراضيها.

اندلعت هذه المعركة بعدما أبدى العاهل الزياني تحالفه مع أبي دبوس،[1] آخر سلاطين الموحدين في حربه ضد يعقوب بن عبد الحق المريني، نستشعر هذا التحالف في الرسالة التي بعثها يغمراسن لأبي دبوس والتي يقدم فيها للخليفة الموحدي ويحذره من أطماع بني مرين فيما بقي من أقطار الدولة الموحدية، وتعهده بأن يكفيه شربني مرين، ومما جاء في هذه الرسالة "إيّاك أن تطمع بني مرين فيما لديك، فأنا أكفيك شرهم وأنا وأنت يد واحدة في حربهم"[2]

شعر أبو دبوس بعد الحلف الذي عقده مع يغمراسن بوطيد سلطانه خاصة بعد أن تملك مراكش وأنحاءها، وهوما أثار حفيظة يعقوب بن عبد الحق المريني الذي هبّ لمحاصرة مراكش وهوما استغله يغمراسن في شن غارات كثيفة على أطراف المغرب الأقصى خاصة على إقليم ملوية للتخفيف من حصار أبي يعقوب بن عبد الحق على مراكش[3]. ولم بلغ ذلك مسامع أبي يعقوب أقلع مؤقتا عن حصار مراكش مبديا إستعداده لقتال يغمراسن في جموع كثيرة وكان ذلك سنة 666هـ/1267م.

وكان يغمراسن من جانبه قد استكمل استعداداته العسكرية لمواجهة بني مرين، فالتقى الجمعان بوادي تلاغ قرب ملوية، ونشبت بينهما معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة يغمراسن بن زيان الذي فر مع من بقي من فلول جيشه حيا نحوتلمسان وذلك سنة 12 جمادى الثانية الموافق لـ 28 فبراير 1268م[4].

*معركة وادي ايسلي 670هـ/1271م: حاول يعقوب بن عبد الحق المريني بعد معركة تلاغ مواصلة طموحه بالسيطرة على كامل أقطار المغرب، لذلك توجه بجيش جرار نحو تلمسان لغزوها،[5] غير أنه بعد وصوله نهر "تافنا" أتاه سفير السلطان ابن الأحمر يسأله نصرة الإسلام ودفع خطر النصارى عن المسلمين في الأندلس فوافاه النصرة وعدل من المسير إلى تلمسان، وراسل يغمراسن يطلب صلحة قائلا له "إن الصلح خير كله فإن جنح إليه وأناب فحسن، وإن

أبى إلا القتال فأسرعوا إلي بالرجوع ..." [6] لكن السلطان يغمراسن رفض هذا الصلح قائلا له : "أبعد مقتل ولدي عمر أصالحه، والله لا كان ذلك أبدا ... حتى آخد منه الثأر وأديف بلاده التبار". [7]

دفع رفض يغمراسن الصلح إلى قيام يعقوب بن عبد الحق بإعلان التعبئة العامة، فحشد قوات جرّارة وعتادا يفوق الوصف، وخرج لقتاله، وتم اللقاء بينهما في وادي ايسلي بمقربة من مدينة وجدة،[8] كانت هذه المعركة عنيفة، حيث لم تكن في صالح يغمراسن الذي انهزم فيها وقتل عدد كبير من جيوشه فيها، لكن لم يتمكن يعقوب بن عبد الحق من اقتحام تلمسان لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها، وقرر الإنسحاب إلى فاس التي دخلها سنة 671هـ/1272م[9] .

وقد أفرزت هذه المعركة بنتائجها قصر نظر يغمراسن وعدم تقديره الجيّد لأبعاد الحدث، ثم عدم فهمه لحركة الجهاد التي كان ينوي يعقوب بن عبد الحق المريني القيام بها في الأندلس، ذلك لأن دولة بني الأحمر بالأندلس كانت تواجه موقفا حرجا على اعتبار أنها آخر المعاقل الإسلامية، وبالتالي كان على يغمراسن توحيد جهوده مع يعقوب بن عبد الحق للدفاع عن أراضي الإسلام في الأندلس.[10]

*معركة تلمسان الأولى 698هـ/1299م[11]: تمثلت الظروف المحيطة بها وأسبابها في رفض السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) لمطلب الملك يوسف بن يعقوب المريني الذي تولى عرش فاس سنة (685-706هـ/1286م-1306م) تجديد المعاهدة والهدنة التي كانت قائمة بينهما نحوثماني سنوات والقاضية بتوحيد المغرب الكبير تحت نفوذ بني مرين. توجه يوسف بن يعقوب نحومدينة تلمسان بجيش جوار محاولة منه لغزوها وإسقاط عرش بني زيان، غير أنه لم يتمكن من دخولها، الأمر الذي دفعه إلى محاصرتها وتضييق الخناق عليها، وبناء مدينة جديدة غرب تلمسان أطلق عليها إسم "المنصورة"[12].

وقد أرجع المؤرخون عدم قدرة يوسف بن يعقوب اقتحام تلمسان إلى حصانة أسوارها ومناعتها ومقاومة أهلها مما أدهش بني مرين، وهو الأمر الذي ساهم بصورة فعالة في تثبيت دعائم الدولة الزيانية، [13] لقد حاصر المرينيون تلمسان مدة سنوات وثلاثة أشهر من 2 شعبان 698هـ إلى غاية ذي القعدة من سنة 706هـ، ورغم هذا الحصار فإن الجيش الزياني لم يتقاعس الدفاع عن مدينته، فقد كانت تخرج كل يوم فرقة عسكرية خاطفة تقاتل الجيش المريني الذي كان محيطا بالمدينة والمقيم حولها وبأرباضها ثم العودة إلى موقعها، وهو أسلوب اتبعه الزيانيون في الحرب مع خصومهم لأنهم كانوا أقوى منهم عددا وعدة.

لقد أراد كل طرف من الزيانيين أو المرنيين أن تكون هذه المعركة لصالحه، فمن جانب "أبوسعيد عثمان" استرجاع سيادة بني زيان المطلقة على المغرب الأوسط وبالأخص تلمسان

التي كانت تعاني دوما من الغزوات المتتالية لبني مرين، ومن ثم استقرار الملك داخل البيت الزياني ومن جانب يوسف بن يعقوب محاولة للزعامة والتسلط وبسط نفوذ الدولة المرينية على المناطق الغربية للجزائر الحالية. [14]

لقد قدمت لنا المصادر تفاصيل أشمل عن هذه المعركة سواء على تطور الأحداث فيما بعدها، أوما تعلق بنتائجها، حيث هلك من سكان تلمسان جراء هذه المعركة التي فرض فيها المرينيون الحصار مائة وعشرين ألف ضحية جراء القتل والجوع، ولم يبق في صفوف بني زيان من المقاتلين إلا نحو الألف من الجند، ورغم هذا العدد القليل من المقاومين ظل الجيش الزياني يقاتل إلى آخر لحظة دفاعا عن العاصمة تلمسان، وفي هذا الصدد يثني التنسي على الجيش الزياني في هذه المعركة قائلا: "ولقد رأيتهم يحملون وهم رجالة من الفرسان، فيفرون أمامهم ولا يقدرون أن يكروا عليهم، فما أكاد أقضي العجب من شجاعتهم".[15]

وقد أدى تطور الأحداث لدى الدولتين إلى اهتمام كل منهما بمشاكله الخاصة عقب توجه يوسف بن يعقوب المريني نحوفاس لتوطيد ملكه ومواجهة خصومه أبي سالم وأبي يحي اللذين كان يحاولان الإستيلاء على عرش فاس،[16] أما السلطان أبو زيان بن عثمان الذي خلف عرش أبيه أبوسعيد عثمان الذي توفي بعد خمس سنوات من الحصار أي في سنة 703هـ/1303م فحاول إصلاح أمور الدولة والجيش وترميم ما هدمته أدوات الحصار من أبراج وأسوار وإعادة نفوذ الدولة على المناطق والأقاليم التي خرجت عن طاعته.[17]

معركة تلمسان الثانية 759هـ/1358م: وقعت في عهد أبو حمو موسى الثاني الذي كان أميرا من امراء بني زيان اللاجئين عند بني حفص بعدما تمكن بنو مرين من الاستيلاء على تلمسان سنة 753هـ/1352م. عمل أبو حمو على إزاحة التواجد المريني من أراضيه، مما قاده إلى الدخول في صراع حاد معهم، استطاع فيه أن يحقق أهم إنتصار في معركة تلمسان والتي يمكن حصر أهم أسبابها الرئيسية فيما يلي :

- استمرار التواجد المريني على جزء معتبر من القسم الغربي للدولة الزيانية منذ سنة 753هـ/1352م.[18]
- حيوية القيادة الجديدة للزيانيين الممثلة في شخصية الأمير أبو حمو موسى الثاني الذي حاول التصدي للهجمات المتكررة لبني مرين وبالتالي الحفاظ على وحدة تراب المغرب الأوسط.[19]
- توفر العلاقات المرينية – الزيانية نتيجة الإعتداءات المرينية المتكررة على تلمسان.[20]

– إستغلال أبو حمو موسى الثاني عجز المرينيين عن العبور إلى العدوة الأندلسية لرد هجمات الإسبان على أراضي الدولة النصرية وانهزام الجيش المريني في موقعة طريف المعروفة عند الإسبان بإسم "ريو سلادو" التي يذكرها ابن الخطيب بقوله: "فهذه الواقعة من الدواهي المعضلة الداء والأرزاء التي تضعضع لها، ركن الدين بالمغرب وقرت بذلك عيون الأعداء".[21]

أما السبب المباشر للمعركة فتمثل في معاودة المرينيين غزوهم تلمسان بقيادة السلطان أبي عنان واتخاذها مقرا له.[22]

هذه الظروف والأسباب مجتمعة دفعت أبو حمو موسى الثاني إلى ضرورة وضع حد لهذه التحديات والأحداث غير المستقرة في القسم الغربي من مملكة بني زيان خلال الفترة ما بين 759-791هـ/1358-1389م. فسيّر نحوبني مرين جيشا كبيرا لا يذكر المؤرخون عدده، متكونا من القبائل المتحالفة كالدواودة، وبني عامر ومن أبناء عمومته زناتة، فضلا عن مساعدة بني حفص.[23]

وعملا منه على التحكم في زمام المعركة وأدوارها اعتمد خطة هدفها مهاجمة قبيلة سويد أحد أعداء بني زيان في وادي ملال جنوب تلمسان لقطع المساعدة على الجيش المريني الذي يقوده ابن السلطان أبي عنان، وبالفعل انطلت الخطة على المرنيين حيث تمكن أبو حمو الثاني من مفاجأة عرب سويد في عقر دارهم وقتل قائدهم عثمان بن ونزمار بن عريف وكثيرا من وجوه القبيلة وأعيانها وطردهم من المنطقة سنة 759هـ/1358م،[24] ثم دخل تلمسان وجموعه تلمسان وأناخ ركائبه عليها ونازلها ثلاثة أيام، بعد معركة شديدة مع المرنيين وأخرج منها ابن السلطان المريني الذي كان أميرا عليها خلفا لأبيه، وكان ذلك سنة 760هـ/1359م.[25]

أما أبعاد هذا النصر بالنسبة للزيانيين فتجلت في:

– مبايعة أبو حموموسى الثاني بحكم الدولة الزيانية من قبل بني عامر والمعقل وسكان ندرومة وهنين ومستغانم وتمزغران والبطحاء.[26]

– إستغل أبو حموالثاني هذا النصر في بناء الدولة الزيانية ومحاربة المناوئين والخارجين عنه حفاظا على وحدة تراب المغرب الأوسط.[27]

– مكنته هزيمة الخصم من كسب ود القبائل العربية المتحالفة معه التي ظلت منضوية تحت **نفوذه تساعده في التصدي لكل محاولات الغزوالمرينية المكثفة على العاصمة تلمسان كغزوة سنة 760هـ/1359م، وغزوة 761هـ /1360م، وغزوة 772هـ /1371م وغزوة سنة 784هـ/1383م وتجلى ثمار هذا الود في انتقالهم إلى أداة بناء أساسية للدولة.[28]**

هذه النماذج عن المعارك المتنوعة مع خصوم الزيانيين، انتقيناها لإبراز النشاط المتنوع للجيش كجهاز رئيسي استندت إليه الدولة منذ قيامها وحتى تاريخ سقوطها، فقد ساهم هذا الجيش مساهمة فعالة في إضعاف قدرة خصوم الدولة ورغم تعدد جبهات نشاطه إلا أنه استطاع الحفاظ على وحدة تراب المغرب الأوسط.

الهوامش:

1- ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص 189

2- خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، دراسة تاريخية وحضارية 633-681هـ/1235-1282م، دار الريان للنشر التوزيع، تلمسان، ديسمبر 2005، ص 112

3- ابن خلدون، العبر ... ج7، ص 86

4- بلغ مجموع هذا الجيش بحوالي ثلاثين ألف ، وكان يتكون من عناصر مختلفة من صنهاجة، ومصمودة وتلكانة وحتى من العرب، ينظر، ابن عذارى، المصدر السابق، ص 330

5- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 404

6- نفسه، ص 404

7- نفسه، ص 103

8- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 115

9- نفسه، ص 114

10- حول تفاصيل هذه المعركة، ينظر ابن خلدون، العبر، ج7، ص 195، يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 209، التنسي أبوعبد الله، نظم الدر، ص ص 130-131

11- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج1، ص27

12- نفسه، ج1، ص 28

13- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص117

14- التنسي، المصدر السابق، ص132

15- نفسه، ص 135

16- يحي بن خلدون، بغية الرواد... المصدر السابق، ج1. ص 211، ينظر كذلك ابن خلدون عبد الرحمن، العبر ... المصدر السابق، ص 98

17- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج1، ص 52

18- نفسه، ص 55

19- الأخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 158

20- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف مصر، (د-ت)، ص 180

21- يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج2، ص 19

22- التنسي، المصدر السابق، ص 158 يحي بن خلدون، البغية، ج2، ص20

23- ابن خلدون، العبر... ج7، ص 256، التنسي، نظم الدر، ص 158

24- نفسه، ص 14

25- أبوحموموسى العبد الوادي، المصدر السابق، ص 14

26- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج1، ص 55

27- التنسي، المصدر السابق، ص 185

28- ابن خلدون، العبر... المصدر السابق، ج7، ص 260